مفهوم إعجاز القرآن وأدلة ثبوته

Atho'ilah Umar
Universitas Islam Negeri Sunan Ampel Surabaya
dakatir2018@gmail.com

Abstrak

إن القرآن هو كتاب هداية وإعجاز لمن تأمله وأمعن النظر فيه وطالعه وذاكره بكل إتقان. وعلى ذلك فهو كتاب لمن أراد البرهان ومناهل العرفان، وكيف لا وهو نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا، ف (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت:٤٢) ومن هذا المنطلق، بذلت جهدي المقل وأملى القصير في التقديم بأبسط الكلام حول وجوه الإعجاز القرآني ساعي المولى أن ينفعني به والقراء. وأخيرا، نسأل الله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم. إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مفهوم إعجاز القرآن وأدلة ثبوته.

الفصل الأول : تعريف الإعجاز

١- لغة:

جاء في لسان العرب أنه مصدر من عجز وهو الفوت والسبق، والتعجيز : النسبة إلى العجز (ابن منظور، ١٩٩٠: ٣٧٠). وهو يعنى إثبات العجز وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز . ومن ثم مراد الإعجاز هو : إظهار صدق النبي (ص) في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن وعجز الأجيال بعدهم . وأما المعجزة فهو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة. (مناع القطان، ٢٥٠:٢٠٠٠)

٢-اصطلاحا:

هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق (الجرجانى، بدون التاريخ:٤٧).

وعلى هذا الأصل اللغوي يكون معنى إعجاز القرآن: "هو إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما يتعلق بالفعل محذوف للعلم به. والتقدير : أعجز القرآن خلقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به (الزرقاني، ١٩٩٦: ٢٢٧)

الفصل الثاني : الأدلة على ثبوت الإعجاز في القرآن.

فيما أعرضه هنا من بيان وجوه إعجاز القرآن حسب ما تجمع لدي من الدراسة من باب التغليب لأن المزيد من وجوه الإعجاز في كتاب الله عز وجل لا تكاد تنحصر، كيف لا يكون ذلك وهو القائل في محكم آياته :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (فصلت:٥٣)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكانت العرب في عهد التنزيل سألوا محمّدا ﷺ أن يأتيهم بآية تدل على صدق دعوته، وادعوا أنه كتاب كغيره ليس فيه ما يعجز عن الإتيان بمثله وأعرضوا عنه زاعمين، كما حكى عنهم عز وجل في كتابه

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (الأنفال: ٣١)

وحينئذ تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله أو بمثل أقصر صورة منه فقال لهم في أول مرة:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:٢٣)

ثم قال لهم مرة أخرى :

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (الاسراء:٨٨)

وقال لهم مهيبا ومقرعا :

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) (الطور: ٣٤)

وقد كان انطباعهم بهذه التحديات أنهم لم يستجيبوا لتحدى القرآن الكريم في محاولة ما، غير أنهم تحولوا عن قولهم السابق " لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا" إلى زعم أن محمّدا إنما يأتيهم بسحر أو كهانة أو شعر. ثم إن آيات التحدى هذه ظلت مسجلة في كتاب الله تعالى تقرع آذان العلماء والأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف مذاهبهم في كل عصر وقرن، فما استطاع واحد منهم أن يسجل إلى جانب هذا التحدي عملا ما يصلح أن يقال إنه قد عارض به القرآن فأتى بشيء حسن لنضرب به على سبيل المثال مسيلمة بن حبيب الكذاب الذي استفحل أمره في أواخر عهد النبي ﷺ قام بالتنبؤ وزعم أن قرآنا آخرَ نزل عليه وقد كان من فصحاء العرب وكان إذا تكلم بسجيته جاء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بكلام جيد ولكنه عندماحاول معارضة القرآن بمزيج من التكلف انحطّ اختراعه إلى أدنى السخرية والسخف. وكان من جملة ما قال :

والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا

فهذا الواقع من أجلى أدلة التجربة والمشاهدة على ثبوت صنعة الإعجاز للقرآن الكريم، وعجزُ جميع المتحدّين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر. (مُحَّد الزرقاني ، ٢٠٠١: ١٧)

الفصل الثالث : مفهوم إعجاز القرآن عند المتقدمين والمتأخرين

لقد توصل العلماء منذ العصور الأولى إلى اكتشاف حقائق الإعجاز القرآني وقالوا كل شيء وحللوا وذللوا واستوعبوا وناقشوا، حتى أنهم لم يتركوا مجالا لمن يجيء بعدهم ليضيف شيئا يذكر أو ينسب إليه. وسأذكر آراءهم حول حقائق الإعجاز القرآني فيما يلي:

١- السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) ، يرى أن القرآن معجز بالنظم، وهذا شأن كلام عبد القاهر. والإعجاز في نظره لا يدرك الا بالذوق وطول خدمة علم البلاغة وممارسة الكلام البليغ.

٢- ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) ، نراه في كتابيه " تحريرالتحبير" و "بديع القرآن" يؤمن بإعجاز القرآن البياني وهو يرى أن القرآن معجز بألفاظه وأسلوبه وتراكيبه، وأثره في النفوس البشرية.

٣- العلوي اليمني (ت ٧٢٩هـ) يرى أن البلاغة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة إعجاز القرآن.

٤- بدر الدين مُحَّد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤ هـ)، وهو يرى في مقدمة كتابه "البرهان في علوم القرآن" :

"قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه، وقسم لفظه ومعناه.." ومعنى هذا، أن وجه الإعجاز في نظره هو بلاغة القرآن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٥- شمس الدين الأصفهاني (ت٧٤٩ هـ) قد أبدى رأيه في تفسيره الكبير أن الإعجاز يكون من وجهين:

أحدهما: إعجاز متعلق بنفس القرآن، وهو الذي يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه، ويشمل النظم. والنظم عنده صورة من القرآن التي تتألف من عنصري اللفظ والمعنى.

وثانيهما: الصرفة

٦- الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)، قال في مقدمة تفسيره "روح المعاني" :

" والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن معجز بجملته وأبعاضه، حتى أقصر سورة منه، ومعجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره بالغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، وقد يظهر كلها قي آية، وقد يستترالبعض كالإخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب، فما يبقى كاف، وفي الغرض واف."

ويبدو أن رأيه هذا يسيرُ على رأي العلماء القدماء وهو أن القرآن معجز بنظمه وبلاغته وبالنظر إلى جملته.

٧- مصطفى الصادق الرافعي ، نراه في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" بعد أن ذكر مؤلفات العلماء الذين تكلموا عن الإعجاز وسرد أقوالهم بالعرض والإستطراد وبالرفض والتفنيد يقول: "نقول: إن الذي ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا، أن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا، وليس إلى ذلك مأتًى ولا جهةٌ، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية ، يشاركها في إعجاز الصفة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وما نظنه إلا الصورة الروحية للعالم كله. فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز فس أثره النفسي، ومعجز كذلك في حقائقه"

هذا هو مفهوم الرافعي للإعجاز القرآني، وهذا هو رأيه، وهو رأي يمكن تلخيصه على طريقة الرافعي نفسه: بأن القرآن معجز لأنه معجز، أي لأنه من صنع الله، وصنع الله لا يتأتى لبشرٍ محاكاتُه، فضلا عن الإتيان بمثله. (العمري، ١٩٨٤: ٢١٢-٢٢٢ بتصرف)

الباب الثاني : وجوه الإعجاز و آراء العلماء فيها.

الفصل الأول : وجوه الإعجاز .

إن وجوه الإعجاز في القرآن لاتنحصر ولا يقتصر لوجه واحد حتما لأن في كل حروفه إعجازا. ولهذا اختلف العلماء في تحديد وجوه إعجاز القرآن كما أنهم اختلفوا في تحديد مفهومه السابق ذكره في الباب الماضي .

وتتعدد وجوه الإعجاز إلى أنواع، منها :

١- الإعجاز بالصرفة

وهذا مذهب بعض العلماء، وعده الجمهور ضمن القول الفاسد إذ يقول فيه النظام: "إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات" (الزركشي، بدون سنة ، ٢: ٦١) . وطبعا أن مثل هذا القول ينافي طبيعة القرآن لأن الإعجاز عندهم إنما يأتي من أمر خارجي أعظم من القرآن.

٢- الإعجاز بالإخبار عن الغيوب

وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله عز وجل (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة:٣٣) ففعل ذلك . وكان أبو بكر الصديق ﷺ إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يفعل كذلك في أيامه حتى وقف أصحاب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جيوشه عليه فكان سعد بن أبي وقاص رحمه الله وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لأصحابه ويحرضهم يه ويوثق لهم وكانوا يلقون الظفر في متوجهاتهم حتى فتح إلى آخر أيام عمر ﷺ إلى بلخ وبلاد الهند وفتح في أيامه مرو الشاهجان ومرو الروذ ومنعهم من العبور إلى جيحون (مُحَمَّد بن الطيب ، بدون سنة ١: ٣٣)

٣- الإعجاز البلاغي وبالنظم القرآني

وذلك أن القرآن بديع النظم عجيب التأليف مُتَناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها . فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه: منها ما يرجع إلى الجملة وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم إلى معدل موزون غير مسجع ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع ترتيب لطيف وإن لم يكن معتدلا في وزنه وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه ولا يتصنع له وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب مسجع ولا فيه شيء منه وكذلك ليس من قبيل الشعر لأن من الناس من زعم أنه كلام السجع ومنهم من يدعى فيه شعرا كثيراوالكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع فهذا إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة وأنه معجزوهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه (مُحَمَّد بن الطيب ، بدون سنة ١: ٣٥).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٤- الإعجاز التاريخي

أنه كان معلوما من حال النبي أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام وابتداء خلقه وما صار أمره إليه من الخروج من الجنة ثم جملا من أمر ولده وأحواله وتوبته ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى إليه أمرهم وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين في القرآن والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء صلوات الله عليهم، ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم وإذ كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددا إلى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي ولذلك قال الله عز وجل (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) (العنكبوت:٤٨) وقال)وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأنعام:١٠٥) (محمّد بن الطيب ، بدون سنة ١: ٣٤).

٥- الإعجاز بكونه الوفاء بحاجات البشر

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر وفاء لا تظفر به في أي تشريع ولا في أي دين آخر ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته والتي نعرض عليك من تفاصيلها ما يأتي :

أولا: إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيا: إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس ويغذي الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها

ثالثا: إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم وتنفيرهم من رذائلها في قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط

رابعا: إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبيات وإزالة الفوارق التي تباعد بينهم وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس واحدة ومن عائلة واحدة أبوهم آدم وأمهم حواء وأنه لا فضل لشعب على شعب ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى وأنهم متساوون أمام الله ودينه وتشريعه متكافئون في الأفضلية وفي الحقوق والتبعات من غير استثناءات ولا امتيازات وأن الإسلام عقد إخاء بينهم أقوى من إخاء النسب والعصب وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين ولسان كتابه لغة العرب وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا الفواصل السياسية والوضعية (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:٩٢)

خامسا: إصلاح السياسة أو الحكم الدولي عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس ومراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والمواساة والمحبة واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات

سادسا: الإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع ووجوب إنفاقه في وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعي المشروع

سابعا: الإصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية

ثامنا: الإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية في مبدئها وغايتها ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها وإيثار السلم عليها والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تاسعا: محاربة الاسترقاق في المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى منها الترغيب العظيم في تحرير الرقاب وجعله كفارة للقتل وللظهار ولإفساد الصيام بطريقة فاحشة ولليمين الحانثة ولإيذاء المملوك باللطم أو الضرب. (الزرقاني ١٩٩٦، ٢: ٢٥٣-٢٥٤)

٦- الإعجاز العلمي

انقسم العلماء في الباب إلى اتجاهين رئيسين وهما اتجاه القبول والآخر اتجاه الرد.

فمن **الأول** يمثله مُحَمَّد اسماعيل ابراهيم، وفي مقدمة كتابه " القرآن وإعجازه العلمي" يقول: واعتقادى أن أي محاولة من البشر لاظهار عظمة القرآن وقدسيته إنما هي وليدة رغبة إيمانية مخلصة فيها ما يشبه التأسي بموقف نبى الله إبراهيم عليه السلام وهو خليل الله عندما قال بروح الواثق من قدرة الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..(البقرة:٢٦٠)

والقرآن المجيد حافل بالكثير من الآيات الدالة على علم الله المحيط بكل ما في الكون من مخلوقات وكائنات وما فيه من نواميس وسنن وقوانين أوجدها سبحانه خاضعة لارادته وأمره، وقد نزلت هذه الآيات الكونية وغيرها من آيات الاعجاز العلمي في وقت لم يكن أهل الجزيرة العربية ومن حولها من الاقطار على علم بأسرارها فلما تقدم الانسان وازدادت علومه ومعارفه بدأت آيات القرآن تظهر أمام بصيرته بمعانيها العلمية الباهرة، وتكشف عن إعجازها الرائع.

والمسلمون يعيشون الآن في عصر زاهر بالعلم وقد بهرهم فيه ما وصل إليه أهل أوروبا وأمريكا من تفوق ظاهر في العلوم والفنون والآداب وبخاصة علم التكنولوجيا وقد سبقوا فيها الدول الاسلامية بأشواط بعيدة الامر الذى جعل ضعاف العقول يسيئون الظن بالاسلام ويحسبون أنه سبب قصورهم وتخلفهم في ذلك المضمار، وهم في ذلك الوهم نسوا أو تناسوا أن الدين الاسلامي بقرآنه المجيد وسنته المطهرة هو الذى خلق من العرب أهل البادية خير أمة أخرجت للناس وأسسوا أعظم الدول وأرقى الحضارات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأكثر الاصول العلمية التى اقتبس أهل الغرب منها علومهم وفنونهم. (مُحَمَّد اسماعيل ابراهيم، بدون سنة، ٢-٤)

ومن **الإتجاه الثاني**، فقد جاء الزرقاني يرفع رايته ولم يذهب إلا إلى القول بأن القرآن كتاب هداية وإعجاز وإنما هو أمام العلوم والكائنات كتاب هداية لاغير، قال:

أنه لم يجعل تلك العلوم الكونية من موضوعه وذلك لأنها خاضعة لقانون النشوء والارتقاء وفي تفاصيلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة ثم إن أمرها بعد ذلك هين بإزاء ما يقصده القرآن من إنقاذ الإنسانية العاثرة وهداية الثقلين إلى سعادة الدنيا والآخرة فالقرآن كما أسلفنا في المبحث الأول كتاب هداية وإعجاز وعلى هذا فلا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز حتى إذا ذكر فيه شيء من الكونيات فإنما ذلك للهداية ودلالة الخلق على الخالق ولا يقصد القرآن مطلقا من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية في الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء ولا أن يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية أو نظرية هندسية ولا أن يزيد في علم الطب بابا ولا في علم التشريح فصلا ولا أن يتحدث عن علم الحيوان أو النبات أو طبقات الأرض إلى غير ذلك، ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا في علوم القرآن ومعارفه فنظموا في سلكها ما بدا لهم من علوم الكون وهم في ذلك مخطئون ومسرفون وإن كانت نيتهم حسنة وشعورهم نبيلا ولكن النية والشعور مهما حسنا لا يسوغان أن يحكي الإنسان غير الواقع ويحمل كتاب الله على ما ليس من وظيفته خصوصا بعد أن أعلن الكتاب نفسه هذه الوظيفة وحددها مرات كثيرة منها قوله سبحانه (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة:٢) منها قوله جلت حكمته (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (المائدة:١٥-١٦) (الزرقاني ١٩٩٦، ٢: ٢٥٦)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني : آراء العلماء حول وجوه الإعجاز

اختلف فيها العلماء على أقوال:

أحداها : وهو قول النظام : إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجيّ فصار كسائر المعجزات .

وهذا القول فاسد بدليل قوله تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (الاسراء:٨٨)

فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سئلوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا غيره وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم عن الإتيان بمثله

وأيضا يلزم من القول بالصرفة فساد آخر، وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ولا معجزة له باقية سوى القرآن وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة، قال القاضي أبو بكر "ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا وإنما يكون المنع معجزا فلا يتضمن الكلام فضلا على غيره في نفسه"

وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم أن الكل قادرون على الإتيان بمثله وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلّموه لوصلوا إليه، ولا بأعجب من قول فريق منهم إنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله في هذا الباب ، وإنما يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد. وزعم قوم أن ابن المقفع عارض القرآن وإنما وضع حكما

ثانيها: أن وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف وهو بأن اعتدلت مفرداته تركيبا وزنة وعلت مركباته معنى بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى. وهذا القول اختاره ابن الزملكاني في البرهان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثها: ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة ولم يكن ذلك من شأن العرب كقوله تعالى (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ)(الفتح: من الآية١٦) وقوله في أهل بدر:(سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر:٤٥) وقوله (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا)(الفتح: من الآية٢٧) وكقوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)(النور: من الآية٥٥) وقوله (الم غُلِبَتِ الرُّومُ) (الروم:٢) وغير ذلك مما أخبر به بأنه سيقع فوقع

ورد هذا القول بأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها بذلك لا إعجاز فيها وهو باطل فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها.

رابعها : ما تضمن من إخباره عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية مَن شاهَدها وحضرها، وقال (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود:٤٩)

وهو مردود بما سبق، نعم، هذا والذي قبله من أنواع الإعجاز إلا أنه منحصر فيه.

خامسها : إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل، كقوله (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا)(آل عمران: من الآية١٢٢) وقوله (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ)(المجادلة: من الآية٨) وقوله (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ...)(الأنفال: من الآية٧) وكإخباره عن اليهود أنهم لا يتمنون الموت أبدا.

سادسها : وصححه ابن عطية وقال : إنه الذي عليه الجمهور والحذاق–وهو الصحيح في نفسه– وأن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن عَلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تليَ الأولى ويتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشرُ معهم الجهلُ والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك ، وبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النطق يبطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله فلما جاءهم النبي ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ، ولهذا ترى البليغ ينقح الخطبة أو القصيدة حولا، ثم ينظر فيها فيغير فيها، وهلم جرا وكتاب الله سبحانه لو نزعتَ منه لفظة، ثم أدبر لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد.

ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفي وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام.

وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة عيسى بالأطباء، وفي موسى بالسحرة، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما تكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذا الطب في زمان عيسى، والفصاحة في مدة مُحَمَّد ﷺ.

سابعها: أن وجه الإعجاز: الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب وغير ذلك مقترنا بالتحدي، وهذا القول اختاره الإمام فخر الدين، وهو قريب مما سبق، وقد قال تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)(الاسراء: من الآية٨٨) ، والمراد بمثل نظمه بدليل قوله تعالى (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ)(البقرة: من الآية٢٣). وقول من قال إن الضمير في (من مثله) عائد على الله : ضعيف بقوله (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ)(هود: من الآية١٣) والسياق واحد.

ثامنها : ما فيه من النظم والتأليف والترصيف وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم وهذا القول اختاره القاضي أبو بكر، وقال: ولهذا لم يمكنهم معارضته.

قال: ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن (من أصناف البديع التي أدعوها في الشعر لأنه ليس مما يخرق العادة) ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدريب والتصنع له، كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة وله طريق يُسلك..، فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا...

قال : ونحن نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعضٍ أدق وأغمض

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم قال القاضي: فإن قيل: ما الذي وقع التحدي به؟ أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات؟ أو غيره؟ ... قلنا : الذي تحداهم به أن يأتوا على الحروف التي هي نظم القرآن منظومة حِكَمها، متتابعة كتتابعها مطّردة كاطّرادها ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بالكلام القديم الذي لا مثل له .

وقال بعض الأئمة: ليس الإعجاز المتحدى به إلا في النظم لا في المفهوم لأن المفهوم لم يمكن الإحاطة به ولا الوقوف على حقيقة المراد منه، فكيف يتصور أن يتحدى بما لا يمكن الوقوف عليه إذ هو يسع كل شيء، فأي شيء قوبل به ادعى أنه غير المراد ويتسلسل؟

تاسعها : أنه شيء لا يمكن التعبير عنه ، وهو اختيار السكاكي حيث قال في "المفتاح" : واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يُدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة. وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت، ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا بإتقان عِلمَي المعاني والبيان والتمرن فيهما

وقال أبو حيان التوحيدي في "البصائر" :لم أسمع كلاما ألصق بالقلب وأعلق بالنفس من فصل تكلم به بُندار بن الحسين الفارسي – وكان بحرا في العلم – وقد سئل عن موضع الإعجاز من القرآن، فقال هذه مسألة فيها حَيف على المفتي ، وذلك أنه شبيه بقولك : ما موضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ودللت على ذاته كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لمحاوله وهدًى لقائله ؛ وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده.

عاشرها : وهو قول حازم في "منهاج البلاغة" : إن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمرارا لا توجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحةُ في جميعه، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه، والفترات في الفصاحة تقع للفصيح إما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بسهو يعرض له في الشيء من غير أن يكون جاهلا به، أو من جهل به أو من سآمةٍ تعتري فكرَه، أو من هوًى للنفس يغلب عليها فيما يحوش عليها خاطره من اقتناص المعاني سمينا كان أو غثًّا. فهذه آفات لا يخلو منها الإنسان الفاضل والطبع الكامل .

وهذا المذهب قريب مما ذكره ابن الزملكاني وابن عطية.

حادي عشرها: قال الخطابي في كتابه – وإليه ذهب الأكثرون من علماء النظر– : إن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن لما صعب عليهم تفصيلُها صغوا فيه إلى حكم الذوق والقبول عند النفس.

قال: والتحقيق أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في درجة البيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شئ منه البتة . فالقسم الأول أعلاه والثانى أوسطه والثالث أدناه وأقربه؛ فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة والجزالة والمتانة فى الكلام يعالجان نوعا من الوعورة فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة خُصَّ بها القرآن يسرها الله بلطيف قدرته ليكون آية بينة لنبيه ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه. وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التى هى ظروف المعانى والحوامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلا أن يأتوا بكلام مثله...

قال الخطابى: وقلت فى إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ فى آحادهم ، وهو: صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ومن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الروعة والمهابة فى حال أخرى ما يخلص منه إليه، قال الله تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)(الحشر: من الآية٢١) وقال تعالى (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)(الزمر: من الآية٢٣)

قلت ولهذا أسلمَ جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبى ﷺ للطور حتى انتهى إلى قوله : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) (الطور:٧) قال : خشيت أن يدركنى العذاب. وفى لفظ: كاد قلبى يطير، فأسلمَ .

وفى أثر آخر أن عمر لما سمع سورة طه أسلم وغير ذلك . وقد صنف بعضهم كتابا فيمن مات بسماع آية من القرآن .

ثانى عشرها : وهو قول أهل التحقيق: إن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد عن انفراده، فإنه جمع كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع بل وغير ذلك مما لم يسبق..

فمنها: الروعة التى له فى قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقرَين والجاحدين ثم إن سامعه إن كان مؤمنا به يداخله روعة فى أول سماعه وخشية ، ثم لا يزال يجد فى قلبه هشاشة إليه ومحبة له، وإن كان جاحدا وجد فيه مع تلك الروعة نفورا وعيا لا نقطاع مادته بحسن سمعه.

ومنها: أنه لم يزل ولا يزال ولا يزال غضا طريا فى أسماع السامعين وعلى ألسنة القارئين.

ومنها: ما ينتشر فيه عند تلاوته من إنزال الله إياه فى صورة كلام هو مخاطبة من الله لرسوله تارة ومخطبة أخرى لخلقه لا فى صورة كلام يستمليه من نفسه من قد قذف فى قلبه وأوحى إليه ما شاء أن يلقيه إلى عباده على لسانه فهو يأتى بالمعانى التى ألهمها بألفاظه التى يكسوها إياه كما يشاهد من الكتب المتقدمة.

ومنها: جمعه بين صفتى الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبا فى كلام البشر لإن الجزالة من الألفاظ التى لا توجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة والعذوبة منها ما يضادها من السلاسة والسهولة فمن نحا نحو الصورة الأولى فإنما يقصد الفخامة والروعة فى الأسماع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مثل الفصحاء من الأعراب وفحول الشعراء منهم ومن نحا نحو الثانية قصد كون الكلام فى السماع أعذب وأشهى وألذ مثل أشعار المخضرمين ومن داناهم من المولدين المتأخرين وترى ألفاظ القرآن قد جمعت فى نظمه كلتا الصفتين وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز.

ومنها: جعله آخر الكتب غنيا عن غيره وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه كما قال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (النمل:٧٦) . (الزركشي ، بدون سنة، ٢: ٦١–٧١).

الخاتمة

إن هذا البحث الذى عرضنا بعض وجوه الإعجاز فيه، لا على سبيل الحصر ولكن على سبيل التمثيل.. فلم يكن جل اهتمامي فيه الكلام عن وجه واحد من الإعجاز وإنما الأليق أن أتقيد بعمومية البحث حول وجوه الإعجاز القرآني كمقدمة لهذه الدراسة وفاءً لما حفزني الأستاذ المحاضر على هذا الموضوع وهو "وجوه الإعجاز عند العلماء"

وخلاصة ما سبق هو أن وجوه الإعجاز لدى العلماء تختلف اختلافا كبيرا وبعضها تأتلف، وهي عندما نلاحظ آراء المتقدمين التي كثيرا ما تدور حول الإعجاز البلاغي والقول بالصرفة في حين نجد آراء المتأخرين حول الإعجاز تفترق بشكل كبير.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المراجع

القرآن الكريم

ابن منظور، ١٩٩٠ . لسان العرب. المجلد الخامس. بيروت: دار صادر.

مناع القطان، ٢٠٠٠. مباحث في علوم القرآن. الطبعة الحادية عشرة. القاهرة: مطبعة المدني.

الجرجاني، علي بن مُحَمَّد. بدون تاريخ. دار الديان للتراث.

الزرقاني، ١٩٩٦. مناهل العرفان في علوم القرآن. بيروت: دار الفكر.

مُحَمَّد الزرقاني، بدون تاريخ.شرح المواهب اللدنية. بيروت: دار الكتب العلمية.

العمري، أحمد جمال، ١٩٨٤. مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري. دار المعرفة.

الزركشي، بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله. بدون سنة. بيروت:دار الجيل.

أبو بكر مُحَمَّد بن الطيب بن مُحَمَّد بن جعفر بن القاسم. إعجاز القرآن. بدون سنة. القاهرة: دار المعارف

مُحَمَّد إسماعيل بن إبراهيم. القرآن وإعجازه العلمي. بدون سنة. دار الفكر العربي–دار الثقافة العربية للطباعة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com